

التأصيل النقدي لحركة الشعر الحديث

بعد مرحلة التأسيس الطويلة لحركة الشعر الحديث والتي تمثلت فى الأعمال الشعرية لرواد الحركة الأوائل قامت الأجيال اللاحقة بتطوير العناصر الفنية فى التجربة الشعرية وانبثقت الاتجاهات الفنية فى إطار هذا الشعر كما ظهرت نماذج لأنماط مستحدثة مثل المسرح الشعرى والقصيدة الدرامية. وقد ظل النقد المستنير حليفا لهذا الشعر منذ بداياته. وكان الانطباع السائد عن النقد المواكب لبدايات الحركة أنه نقد تشجيعى تطور إلى نوع من المشاركة الاحتفالية الصاخبة بحركة التجديد الشعرى. ومع نضج حركة الإبداع الشعرى ذاتها وانتشار مفاهيمها وقبولها الجماهيرى، فإن النقد نفسه بدأ يدخل مرحلة النضج والإلاح على دراسة العناصر الفنية من زاوية موضوعية.

ولقد كانت دراسة الشاعرة العراقية نازك الملائكة «قضايا الشعر المعاصر» من أسبق الدراسات الموضوعية فى هذا الاتجاه ولكنها جاءت فى وقت مبكر ولم تكن الحركة الشعرية قد أعطت بعد حصادا يسمح باستخلاص القواعد النهائية للشكل الفنى للشعر الحديث.

لقد بدأت الدراسات الموضوعية منذ الستينيات تتابع على نهج التأصيل النقدي لهذا الشعر فصدرت دراسة «قضية الشعر الجديد» للدكتور محمد النويهى والشعر العربى المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية للدكتور عز الدين إسماعيل و«عن بناء القصيدة العربية الحديثة» للدكتور

على عشرى زايد إلى جانب دراسات كثيرة جادة للأساتذة النقاد الدكتور لويس عوض وعبد القادر القط وشكرى عياد ورجاء النقاش وغيرهم. وعلى طريق التأسيس النقدي لحركة الشعر الحديث تأتي هذه الدراسة الجديدة «لغة الشعر قراءة فى الشعر العربى الحديث» للدكتور رجاء عيد وقد تناول المؤلف فى هذا الكتاب عددا من أبرز الظواهر الفنية والقضايا الأدبية والعناصر الأساسية فى التجربة الشعرية الحديثة، وقد افتتح دراسته بالحديث عن الحداثة والأداء الفنى من خلال تحديث التعبير المتمثل فى تحول الرؤية الفنية فى الشعر الحديث من الخارج إلى الداخل، «وهو التحول الذى أضفى صورة مركبة على التعبير عن هذه الرؤية»، فالمؤلف يقول: «لقد تحولت - تبعا لظروف متعددة - لغة التعبير الشعرى من وصف العالم المادى الخارجى إلى وصف عالم الشاعر الداخلى وإلى التعبير عن شجنه النفسى باستخدام لغة تعبيرية مكثفة لتلك المشاعر بدلا من الوصف المادى الذى يعتمد على التشابهات والتماثلات وقد أدى ذلك إلى العزوف عن المعجم الشعرى التقليدى الذى لم يعد باستطاعته الاستجابة لتحدى التشابكات الحياتية المعاصرة ومن ثم كان انبثاق تشكيلات تعبيرية متوالية مع التغيرات الحادة التى عبر عنها أدونيس فى قوله «وقف أسلافنا عند مظاهر الطبيعة وأشكالها الخارجية أما اليوم فإن قلوب وارثيهم تخفق صوب الأعماق والجذور. كان الإبداع لدى أسلافنا يقوم على انتقاء موضوعات فى حدود الوعى الإنسانى العام غير أن موضوع الإبداع اليوم جوهره تجربة تتجاوز القيم المألوفة والأشكال المكرسة.. صار الإبداع الشعرى وسيلة لاكتشاف نفس الإنسان والعالم صار فعالية

جوهرية تتصل بوضع الإنسان ومستقبله ومصيره» إن التركيز على الرؤية الشعرية هو المدخل المناسب لتحليل التعبير عن هذه الرؤية. وقد انتقل المؤلف من ملاحظاته المقارنة على طبيعة الرؤية الفنية في التجربة الشعرية إلى رأيه في طبيعة عمل الشاعر الحديث. والحقيقة إن المؤلف في هذه الملاحظات قد ركز في مقارناته على بعض النماذج الشعرية من التراث العربى لا تمثل صميم الرؤية الشعرية فى العصور الذهبية للشعر العربى لأن معظم النماذج الشعرية التى استشهد بها المؤلف لتوضيح خارجية الرؤية تنتمى إلى عصور ضعف الإبداع الشعري، وهى العصور التى سادت فيها المحسنات البلاغية وأصبحت البلاغة تحت سيطرة علم المنطق، ومن هنا جاء التعبير الشعري تطبيقا عاجزا لهذه القواعد التى كان هدفها مدرسيا فى المقام الأول. ذلك أن المقارنة فى الواقع بين الرؤية الفنية فى القصيدة الحديثة والقصيدة التقليدية ليست فى أن واحدة تتميز بأنها داخلية وأخرى خارجية بل تتركز فى أن الرؤية الحديثة تعطى مساهمة أوسع للرؤية الداخلية وتمتلى هذه الرؤية بمكونات العصر الحديث بمعطيات الإنسانية والوجدانية والشعورية والفكرية التى تختلف اختلافا كبيرا عن الرؤية التقليدية التى تصور عصرا قديما ذلك لأن الشعر الحقيقى - ولا شك أن هناك فى تراثنا الكثير من الشعر الحقيقى - سواء أكان حديثا أم قديما يعتمد على الرؤية الداخلية لأنه تجسيد لوجدان قبل أن يكون تصويرا فكريا وإذا كانت ملاحظات المؤلف حول الرؤية الفنية قد جنحت إلى بعض المبالغة فإن رأيه فى طبيعة عمل الشاعر كان أقرب إلى الحقيقة حين يقول:

«إن الشاعر الحديث يشعر بتجربته الشعورية شعورا مختلفا، وهنا فإن مكونات عناصر أدائه التعبيري تعتمد على نسق معقد فى استخدام معجم شعرى يتولى مهمة تجسيد الإحساس ودفق المتلقى كى يتوحد معه فى همومه الذاتية التى هى جزء من هموم الإنسان فى معاناته الوجودية فى مختلف أشكالها وتعدد مظاهرها وتنوع صورها». وقد لمس المؤلف وهو بصدد الحديث عن الشكل والطريقة الحديثة فى استخدام التضمين والحوار كنوع من الاستفادة من التراث ومن فنون العصر مثل فن المسرح. أما البناء الإيقاعى للشعر الحديث فقد حظى هو الآخر بعناية المؤلف حيث يقول:

«من الإمكانيات التى وفرها استخدام - التفعيلة - أن أصبح الإيقاع جزءا عضويا فى بنية القصيدة التى تتشكل من توترات نفسية فى آتات زمنية تواكبها. ويقوم الإيقاع المتغير على حسب تلك الآتات باحتضان المناخات الانفعالية وخلق تلاحم عضوى فى معمار القصيدة وهندسة بنائها اللغوى. ولقد كان التحول للشكل الجديد نابعا من تطور طبيعة الشعر الحديث حيث أصبحت فنا يستخدم الكلمات ليخلق تأثيرات موسيقية ودرامية. ومن هنا يكون الإيقاع هو القرار الأساسى لوحدة الشكل والمضمون ممتشجا بالتجربة الشعرية جاعلا أداءها عميقا ومتصلا بين الشاعر والمتلقى فى تناغم متداخل يؤازر بعضه بعضا. يوحد بين أجزائها حتى تصل إلى ذروتها الدرامية ومن هنا تلعب الكلمات دورا أساسيا فى تركيب القصيدة الجديدة وتمنحها تراكماتها اللغوية فى نسقها الفنى بما يمكن أن يسمى بالفكر الشعرى الذى يستبطن الحقيقة

الداخلية» وقد استطاع المؤلف فى هذه الفقرة أن يضع وعيه على عنصر مركزى فى تحول الإيقاع من الشكل البسيط الغنائى إلى الشكل المعقد الدرامى. ذلك أن الدرامية فى الشعر الحديث قد أفرزت هذا الأداء اللغوى المرن الذى يتعامل مع مستويات متنوعة فى اللغة الواحدة أى تطويع اللغة للأداء الدرامى فى التجربة الشعرية. وجاء هذا التطويع مواكبا لنفس التطويع الإيقاعى فى الشكل. فالقصيدة الحديثة وهى تطمح إلى الاقتراب من عصرها وكذلك تطمح إلى الاستفادة من الآداب والفنون المعاصرة لها قد عمدت إلى تنويع الإيقاع ليس من خلال البحور العروضية بل من خلال إعادة تشكيل التفاعيل داخل البحر الواحد. وقد انطلق المؤلف بعد أن وضع صياغة شبه دقيقة لمفاهيمه عن الحدائث فى التجربة الشعرية إلى اختيار هذه المفاهيم من خلال تطبيقها على عدد هائل من النماذج الشعرية الحديثة، فقد تحدث عن الرمز والترميز والتجاوز الدلالى ولغة الشعر بين الحب والوطن ولغة الحب فى التجربة الصوفية ولغة الشعر والتراث. ومعالجة الشخصيات التراثية بين الاستخدام الفنى والبعد التاريخى كما عقد فصلا للشعر والأسطورة يقول فيه :

«الشعر توأم الأسطورة، فعودة الشعر إليها إنما هو حنين الشعر لتراث طفولته والأسطورة إذ تحتضنها القصيدة فلكى تتحول فى بنيتها إلى طاقة خالقة للأداء الشعري، حيث يتمثل فيها التراث الشعبى والعقل الجمعى بصورة عضوية تؤكد موقف وقيم الإنسان تجاه الكون وتجاه تساؤلاته المتعددة والإنسان بالمعنى العام امتداد فى الزمن الذاهب

والآتى مضافا إليه بالضرورة حاضره. ومن هنا كان استخدام الأسطورة فى الشعر محاولة للارتفاع بالقصيدة عن تشخيصها الذاتى إلى إنسانيتها الأشمل والأعم وإلى إكسابها بعدا أعمق ومجالا أفسح وتأثيرا أرحب ولنتجاوز فى الوقت نفسه الآتى المحدد الزمنية إلى الجوهر الممتد فى زمنية مطلقة».

إن محاولة التآصيل النقدى لحركة الشعر الحديث والتي تتخذ عدة محاور أكاديمية وفنية وجمالية هى تأكيد لرسوخ هذا الشعر الذى فجر طاقة الإبداع الشعرى لدى ثلاثة أجيال متعاقبة ولكن المفاهيم النقدية والتي يسعى معظم النقاد إلى اختيارها تطبيقيا مازالت هى نفسها فى مرحلة التكوين ومازالت بعيدة عن النتائج الحاسمة. ولكنها محاولات ضرورية لإضاءة الوعى بالشعر ولرصد الحركة الشعرية عبر تطورها المبدع الخلاق.

